

العنوان:	حضور المرأة في الحقل الصوفي المغربي: مظاهره وصوره
المصدر:	التصوف والمجال والإنسان: أعمال مهداة إالى الأستاذ عبداللطيف الشادلي
الناشر:	الجمعية المغربية للبحث التاريخي
المؤلف الرئيسي:	شراس، لطيفة
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2016
مكان انعقاد المؤتمر:	الرباط
الهيئة المسؤولة:	الجمعية المغربية للبحث التاريخي
الصفحات:	89 - 96
رقم MD:	883336
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	التصوف، المرأة المغربية، النصوص المناقبية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/883336

حضور المرأة في الحقل الصوفي المغربي
مظاهره وصوره

لطيفة شراس*

تقديم:

في البداية نشير إلى أن المرأة احتلت في الفكر الصوفي داخل العالم الإسلامي عامة، وفي بلد المغرب خاصة مكانة متميزة، يعبر عنها الاحترام الذي حظيت به صوفيات شهيرات مثل: رابعة العدوية التي تعد بحق الشخصية المؤسسة للتصوف ولصلاح النساء بعشقها الإلهي وتجربتها الصوفية العميقة، ومأثوراتها البالغة المعنى والتأثير في تاريخ التصوف عامة والتصوف النسائي خاصة[1].

يدل على هذه المكانة أيضا حضور المرأة في النص المناقبي بوتيرة ملحوظة.

ويعود هذا في اعتقاد بعض الباحثين[2] إلى أن التصوف كان أكثر تعبيرا عن المساواة بين المرأة والرجل في ولوج عالمه وظهور علامات الصلاح والوصول إلى أعلى مقامات التصوف، رغم أن رتبة القطبانية التي تعد من أعلى المقامات في التراتبية الصوفية تبقى حكرا على الرجال دون النساء.

كما يبدو أن إزالة الحواجز من طريق المرأة للولوج إلى العالم الصوفي، ينسجم تماما مع البعد التوحيدي للتصوف في فتح "طريق الله" أمام السالكين. فتمت المساواة بموجب هذا البعد بين مختلف الأعراق والأجناس والمستويات الاجتماعية والمعرفية[3].

* - أستاذة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير.

1- رحال بوبريك، **بركة النساء، الدين بصبغة المؤنث**، إفريقيا الشرق، 2010، ص 98

2- محمد المغراوي، «تصوف المرأة في العصر الموحدي»، **مجلة البحث التاريخي**، ع 2، 2004، ص 8

3 - **نفسه**

بل إنه تجاوز ذلك، وتمت المساواة أيضا بين أعلام من خاصة الصلحاء وأشهرهم، وآخرين لم يُذكر ما يدل عليهم سوى كراماتهم. وبنفس المنطلق دائما تم الاحتفاء بأشخاص مجاذيب وبهاليل وملاماتية.

لكن، وعلى الرغم من هذا كله، فإن حضور المرأة الولية الصالحة في المتون الصوفية، والقصد أساسا المتون المناقبية لم يرق إلى الحيز المخصص للرجال.

وهذا ما دفعنا إلى إبداء بعض الملاحظات المتعلقة بحضور المرأة في النص المناقبي المغربي، وكيفية حضورها فيه.

1 -ملاحظات حول حضور المرأة الصوفية في النص المناقبي

- **الملاحظة الأولى:** وهي أن الإشارات التي تقدمها النصوص المناقبية حول تصوف المرأة قليلة جدا. فحين نبحث عن أثر النساء في النصوص وحتى الشهيرة منها لا نكاد نعثر إلا على عدد قليل منهن. ففي كتاب التشوف إلى رجال التصوف الذي يعد أقدم وأهم نص مناقبي لتراجم الأولياء في العصر الوسيط (ق12|13م) بالمغرب، لا يذكر سوى ثمان نساء، منهن ثلاث غير معروفات وذكر منهن بالاسم خمسا فقط، وهذا العدد ضعيف جدا مقارنة مع العدد الإجمالي لتراجم الكتاب التي بلغت 277 ترجمة. وعنوانه يفصح عن نظرة مؤلفه، فهو مخصص لرجال التصوف فقط.

نفس الملاحظة تنطبق على كتاب ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير الذي ألف في القرن 14م، فهو بدوره لا يذكر سوى ثلاث نساء بشكل مباشر. واستمرت الظاهرة نفسها مع مرور الزمن ولم يترجم لنا صاحب دوحة الناشر بمحاسن من كان بمغرب القرن العاشر إلا لمرأة صالحة واحدة. والتي لم تكن سوى والدته عائشة بنت أحمد الإدريسية[4].

وفي نهاية القرن 19 م دون محمد بن جعفر الكتاني (ت 1926) كتابا مناقبيا ضخما حول صلحاء فاس المسمى سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من الصلحاء بفاس. بلغ 1800 ترجمة من بينها 48 ترجمة نسائية وفي معظمها تقتصر على الاسم وتاريخ الوفاة.

4- محمد بن عسكر الشفشاوني، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، منشورات مركز التراث الثقافي، البيضاء، 2003، ص 28.

- **الملاحظة الثانية:** وهي الغياب الكامل لتراجم النساء الصالحات في بعض المتون المناقبية التي ذاع صيتها وعلت قيمتها المصدرية بالنسبة للباحث في تاريخ التصوف المغربي في العصر الوسيط، ونذكر منها على سبيل المثال:"السر المصون في ما أكرم به المخلصون"، من تحقيق حليمة فرحات. وأيضا كتاب المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لابن عبد الكريم التميمي (ت604هـ/ 1207م) اللذين لم ترد فيهما أية ترجمة نسوية. ومن المثير أن النص الوحيد الذي خصص لمناقب الوليات من النساء يتعلق بامرأة من سوس، خصص بأكمله لمريم السملالية سليلة الولي الشهير سيدي أحمد أوموسى بسوس، يقع النص في أزيد من 200 صفحة (مخطوط لم ينشر بعد رغم أهميته). كما أشار إلى ذلك الباحث رحال بوبريك.

- **الملاحظة الثالثة:** إذا تجاوزنا مسألة العدد، وركزنا على كيفية تناول مدوني كتب المناقب للنساء الصوفيات، نسجل شحهم في تقديم المعلومات حولهن واختزالهم الكبير لها، مقارنة مع المعلومات المخصصة للرجال، إذ لا يتعدى المؤلف في أغلب الأحيان إلى جانب اسمها مكان وتاريخ الوفاة، وإذا جاد فإنه يضيف شيخها المعتمد في سلوك طريق القوم.

للاستدلال على ذلك، يمكن الوقوف على بعض النماذج من النساء المترجم لهن في كتاب ممتع الأسماع مثل السيدة زهراء بنت الكوش الشهيرة ببلد مراكش ونواحيها5. أو ترجمة السيدة الصالحة فاطمة الأندلسية الواردة بكتاب مرآة المحاسن بأخبار الشيخ أبي المحاسن. تحت عنوان بعض صلحاء وأعلام القصر الكبير دون تفصيل ودون إضافة أي شيء يتعلق بها6. مع أن الذاكرة الشعبية تحتفظ لهن بالشيء الكثير.

- **الملاحظة الرابعة:** وهي أن عددا كبيرا من تراجم النساء الصالحات ارتبطت واقترنت بذكر أحد أقاربها الصلحاء الرجال. إما الزوج، أو الأب، أو الإبن، أو الأخ أحيانا. وتندرج هذه المسألة في رغبة مؤلفي سير هؤلاء الصلحاء الذكور على إثبات صلاح وعفاف المحيط العائلي الذي تربى فيه هذا الصالح.

5- محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع...**، تحقيق وتعليق عبد الحي العمروي، وعبد الكريم مراد، دار النجاح الجديدة، البيضاء، 1994، ص 120.

6-محمد العربي الفاسي، **مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن**، طبعة حجرية، فاس، 1324، ص 206.

ونسوق نموذجا على ذلك، بعض التراجم النسائية الواردة في كتاب مرآة المحاسن، مثل الولية الصالحة عائشة بنت شقرون الفخار التي اقترن اسمها بزوجها العارف بالله محمد بن عبد الله معن، وابنها الولي الكامل سيدي أحمد بن عبد الله معن[7].

وتنسحب نفس الملاحظة على ابنتها السيدة رقية بنت محمد بن عبد الله، وهي شقيقة الشيخ الصالح السابق ذكره[8]، أحمد بن عبد الله معن الذي يعتبر من أشهر شيوخ وعلماء الزاوية الفاسية المعنية في القرن 11 هـ/ 17م.

ما يجدر التنبيه إليه، أنه بالرغم من قلة الإشارات المنقبية المخصصة للنساء الصوفيات، وطابع الاختزالية والقصدية في التعامل مع تراجمهن. فإن تحليل مضامين تلك الشذرات على شحها، يبرز أن حضور المرأة المغربية في مجال الصلاح وأدوارها كانت لهما أهمية أكبر من التي أبرزتها المصادر. وأن حجم مشاركتها في الحقل الصوفي كان قويا، كما سيتم توضيحه في هذه الورقة. لكن قبل ذلك، لا بد من تقديم فكرة عن الأصول التاريخية للتصوف النسائي المغربي وامتداده.

2 -لمحة عن أصول ظاهرة التصوف النسائي في المغرب وامتدادها التاريخي.

لعل أقدم الإشارات المنقبية الدالة على ظاهرة الزهد والتصوف النسائي بالمغرب تعود إلى أواخر القرن 5 هـ/11م. حيث انفرد ابن الزيات بذكر إقبال سكان أغمات وريكة على زيارة قبر إحدى الصالحات للتبرك به والدعاء عنده[9]. ويتعلق الأمر بأخت العالم التونسي التي قدمت من القيروان مع أخويها في أواخر القرن 5هـ 11م وسكنوا بمدينة أغمات. وقد تفرغت هذه الصالحة للعبادة عمرها فلم تتزوج، كما جاء في التشوف[10].

غير أن ظاهرة تصوف النساء ستشهد انتعاشا قويا في عصر الموحدين[11]، انسجاما مع نضج وازدهار الحركة الصوفية بالمغرب بشكل عام، كما أكدت كل الدراسات المنجزة

7- **نفسه**، ص 142.

8- **نفسه**، ص 300.

9- ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1984، ص94.

10- **نفسه**، ص 112-110، ابن فرحون، **الديباج المذهب**...، تحقيق محمد الأحمد أبو النور، القاهرة، (د-ت)، ج 2، ص 23.

11- محمد المغراوي،»تصوف المرأة في العصر الموحدي«، **م.س.**

في هذا الموضوع[12]. فأصبح تصوف المرأة ذا ثقل ووزن معتبرين في المجتمع المغربي، اعتمادا على ما نقله ابن الزيات عن الصالحة منية بنت ميمون الدكالي (ت(595هـ/1198) التي قالت حول حضور النساء بموسم رباط شاكر في إحدى السنوات:"حضر هذا العام برباط شاكر ألف امرأة من الأولياء"[13]، مما يؤكد أن مشاركة المرأة القوية والنوعية في هذا الموسم الديني السنوي تعكس حركية صوفية نشيطة في أوساط نساء المصامدة ونساء الجنوب بصفة عامة[14]. على اعتبار أن موسم رباط شاكر هذا كان يستقطب الزوار من مناطق تتجاوز المجال المصمودي.

وتأكيدا لنفس الظاهرة ذكر أحد شيوخ التصوف من المصامدة وهو الشيخ أبو يعزان يبريدن الأيلاني أن بين هذه القبيلة 27 من"الأولياء يخترقون الهواء"، منهم 14 امرأة، أي أن عدد النساء الوليات في قبيلته أيلان وحدها ممن بلغن هذه الدرجة العليا من التصوف يفوق عدد الرجال.

تنطوي هاتان الإشارتان على دلالة رمزية عميقة في فهم مكانة المرأة في التصوف في الوسط المصمودي بين قبائل هسكورة وأيلان بشكل لافت للانتباه.

ولم يقتصر حضور النساء بهذا المجال المصمودي فقط، بل شمل كل القبائل التي شكلت محور كتاب التشوف مثل قبائل تادلا ودكالة، حيث تم ذكر عدة نساء بلغن درجة الولاية مثل منية بنت ميمون الدكالي، أم عصفور تيعزات بنت حسين الهنتيفي، والصالحة ملوكة التي تعتبر عمدة ابن الزيات في نقل أخبار صالحي بلدها تادلا. ونقل عنها أنها كوشفت بانتصار المسلمين في معركة الأرك.

سجل العصر المريني أيضا حضور نساء صوفيات ذوات نفوذ روحي واجتماعي قويين. يكفي أن نذكر نموذج الشيخة الصالحة عزيزة السكسيوية دفينة إيمنتانوت. التي ذكر عنها ابن قنفذ القسطنيني، أنه كان لها أتباع ومريدون من النساء ومن الرجال أيضا، كما كانت ذات كلمة قوية ومسموعة في وسطها القبلي. حيث نجحت في العديد من الوساطات قصد الصلح بين القبائل المتنازعة[15].

12- من قبيل دراسة لحسنات عبد الجليل، التصوف **المغربي في القرن 6هـ/12م**، رسالة لنيل (د.د.ع) في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب بالرباط، سنة 1990.

13- ابن الزيات، **التشوف، م.س.**ص 16.3.

14- محمد المغراوي،»تصوف المرأة في العصر الموحدي»، **م.س.** ص11.

15- ابن قنفذ القسنطيني، **أنس الفقير وعز الحقير**، القاهرة،2002، ص131

أما خلال القرنين 16و17م، فقد أكدت إحدى الدراسات المهمة التي تناولت الحركة الصوفية خلال هذه الفترة التاريخية على قوة حضور المرأة المغربية في الحياة الصوفية[16]. بل إن هذا العهد تميز باحتواء عدد كبير من الزوايا المغربية على جناح خاص بالنساء يتدربن فيه على مقامات الطريق الصوفي، على غرار ما يقوم به الرجال في الجناح الخاص بهم. والأكثر من ذلك، فإن العديد من اللواتي وصلن إلى درجة الولاية الصوفية، أتيحت لهن بدورهن فرصة بناء زوايا خاصة بهن – وهي سابقة تاريخية -كما هو شأن الصالحة عائشة بنت أحمد الإدريسية (ت 979هـ/1572م) والدة محمد بن عسكر، صاحب دوحة الناشر التي كانت لها زاوية بشفشاون[17]. أو شأن الصالحة السيدة زهراء بنت عبد الله الكوش (ت 1020هـ/1612م) التي اشتهرت زاويتها بمراكش[18].

من ضمن هؤلاء النسوة من كانت تنتمي إلى بيوتات اشتهرت بصلاحها وتصوفها، وبقوة نفوذ زواياها الروحية والاجتماعية والسياسية أحيانا، مثل الست ريسون التي تنتمي إلى الزاوية الريسونية بتاصروت بجبل العلم في بلاد غمارة بشمال المغرب[19]. أو السيدتين الصالحتين زبيدة زوجة سيدي محمد الزعري جد سيدي محمد بوعبيد الشرقي، والسيدة رحمة بنت حمزة بن يعيش زوجة سيدي محمد الشرقي صاحب الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد[20]. ونماذج أخرى مثل السيدة رقية بنت محمد الحاجية والدة الشيخ عبد الله الخليفتي شيخ زاوية أيت خليفت، أو السيدة عائشة بنت أبي بكر الدلائي[21].

في حين شقت صالحات أخريات طريقهن في التصوف بمفردهن دون اعتماد إرث العائلة الصوفي، والنماذج على ذلك عديدة أيضا.

لا يمكننا بأية حال التتبع الزمني لهذه الظاهرة خلال القرون اللاحقة (فالمجال الزمني لا يسمح بذلك). لكن ما يجب التسليم به أن التصوف غزا قلوب النساء المغربيات مثلما غزا قلوب الرجال، في كل زمن، وفي كل ركن من أركان هذه البلاد. ونؤكد أيضا إقبالهن على التصوف بنفس حماس ورغبة الرجال، بل ربما بحماس أكبر

16- أحمد الوارث، **الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي خلال القرن 16م**، رسالة لنيل (د.د.ع) في التاريخ، ج1، ص 230-229.

17- محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر...، **م.س.** ص 30

18- محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع، **م.س.** ص 120.

19- أحمد الوارث، الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي، **م.س.**، ص 242.

20- لطيفة شراس، **الحركة الصوفية في منطقة تادلا خلال القرنين 11-10ه|16و17م.** أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب بالرباط، سنة 2004، (مرقونة)، ص 95.

21- **نفسه.**

بحكم خصوصية المرأة المرتبطة بطبيعة تكوينها العاطفي، الذي يجعل تجربتها الصوفية أكثر عمقا وحماسة ورفاهة.

3 -مظاهر وصور مشاركة المرأة في الحقل الصوفي.

يمكننا التمييز فيها بين صور مرتبطة بالممارسة الروحية، وصور أخرى لها ارتباط وثيق بالمجتمع. ففي ما يتعلق بالجانب الأول، تسوق لنا كتب المناقب براهين عديدة على المكانة العالية التي بلغتها النساء في التصوف. يترجمها إيمانهن العميق المتجلي في عبادتهن اليومية وتفانيهن في كثرة الصلاة والصوم والتهجد والحفظ لكتاب الله. وأيضا مسلكهن التقشفي في الطعام والثياب، ورفضهن أكل الطعام من قوم لا ترضين مكسبهم من شدة تحريهن لأكل الحلال.

كما حَلَّتْهُنَّ كتب المناقب بتحليات وألقاب تدل على هذه المكانة الصوفية العالية، مثل الولية الكاملة، ذات الحال القوي، والمكاشفات الصريحة، الزاهدة، الورعة الطيبة، المطهرة، ذات البركات الواضحة.

وبالتالي فقد تمتعت العديد منهن بنفوذ روحي كبير سواء في حياتهن أو بعد مماتهن. حيث ظلت أضرحتهن مقصدا للزيارة من طرف النساء وحتى من طرف الرجال، طلبا لبركتهن. وهذا يعني بالدرجة الأولى أنهن لم يكن بمعزل عن محيطهن، حيث اشتهرت العديدات منهن بالقيام بالنصح والإرشاد ودعوة الناس إلى الله الذكور منهم والإناث. وافتائهم في أمورهم الدينية والدنيوية، ما يدل أن تصوفهن كان تصوفا عالما، فقد شاع عن السيدة عائشة السكسيوية السابقة الذكر، أنها كانت فصيحة في أجوبتها ووعظها[22].

وورد بالروض العطر أن السيدة رقية سليلة محمد بن عبد الله معن الفاسي"كانت ناصحة لأقاربها وذوي رحمها زاجرة لنسائهم عما لا يعنيهم، حاملة لهم على الجد والاجتهاد. وكانت النساء تهتدين بكلامها وتتأثر به، ولا يقدرن الخوض في محضرها في اللغو من الكلام"[23]. وتتعدد الأمثلة وتتنوع في هذا الباب.

وبعيدا عن الجانب الروحي والتوجيهي، فقد كانت النساء الصوفيات غير نائيات عن المشاكل اليومية التي يعيشها أبناء جنسهن. وثبتت مشاركتهن في حل بعض

22- ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، **م.س.** ص 131.

23- إبن عيشون الشراط، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1997، ص 145.

مشاكلهم. فقد أشادت الروايات المناقبية بالعديد من الوليات اللائي اشتهرن بتقديم الصدقات والهبات للمحتاجين والفقراء سواء داخل الزوايا أو بعيدا عنها. وتأدية الدين عن المديونين والمساهمة المادية في بناء الرباطات الصوفية وقبب وأضرحة الصلحاء. وقد عرفت بعض الوليات الصالحات بكثرة التصدق إلى حد أثار غضب وسخط أزواجهن كما الحال بالنسبة للصالحة عائشة بنت محمد بن عبد الله معن[24].

من زاوية أخرى، فقد بلغت بعض النساء مبلغا قويا من النفوذ الروحي والاجتماعي، ما أهلهن للنجاح في تهدئة الفتن والنزاعات سواء بين القبائل المتنازعة فيما بينها، أو بين الثائرين والسلطة القائمة، وخلق نوع من التوازن الاجتماعي. وبهذا الصدد نذكر نجاح الصالحة عائشة السكسيوية في إخضاع أحد الثائرين بمجال نفوذها الروحي، وإلزامه بالدخول في طاعة أمير مراكش عامر بن محمد الهنتاني[25].

ما تجدر الإشارة إليه، أن مثل هذه الوساطات، لا تتم دائما بشكل فعلي ومباشر. ولا تتعدى المستوى الرمزي باستعمال هؤلاء النسوة لقوة بركتهن. وهنا يفتح الباب على مصراعيه لتوظيف الكرامة، فكما هو معلوم، فإن صاحب أو صاحبة البركة الصوفية كما يمكنها جلب الخير للناس، فإنها في نفس الوقت تصبح مصدر ضرر وشر لهم عندما يفرض الموقف الانتقام من جهة مارست الظلم.

هذه بشكل موجز، بعض الصور التي لا تدع مجالا للشك، في حضور المرأة المغربية في المنظومة العامة للصلاح. ومشاركتها الفعلية في الحركة الصوفية المغربية، ضاهت في ذلك مثيلاتها في المشرق أو في العالم الإسلامي بشكل عام.

وما مواراة وتغييب دور المرأة الصوفية في أدبيات التصوف وغيرها، سوى تعبير صريح عن خلفيات ذهنية المجتمع الإسلامي في تصورها وتمثلها للمرأة بشكل عام، هذا التصور الذي انطبع بكثير من السلبية والدونية.

24- نفسه، ص 150.

25- ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، م.س. ص132.